تحقيق الكنيسة بسر الإفخارستيا المقدسة

بحسب القديس نيكولا كاباسيلاس

إيريني أرتيمي

نقلتها إلى العربية بتصرف أسرة التراث الأرثوذكسي

القداس الإلهي هو النقطة المرجعية المركزية للعبادة الأرثوذكسية. الإفخارستيا المقدسة هي السر الأكبر في الكنيسة، لأنها سر حضور المسيح بيننا، وهذا الحضور هو ما يعطي المعنى الحقيقي لحياتنا. ويبلغ سر القداس الإلهي ذروته بالاحتفال بالإفخارستيا. إن المهمة الرئيسية للقداس الإلهي هي تحوّل تقدِمات المؤمنين من خبزٍ وخمرٍ إلى جسد المسيح ودمه. وهدف هذا التحول هو تقديس المؤمنين الذين يستمدون مغفرة خطاياهم وإرث ملكوت السماوات وكل خير روحي بمشاركتهم في الإفخارستيا (كاباسيلاس، شرح القداس الإلهي).

يشكل القداس الإلهي مركز العبادة الأرثوذكسية. إنه سر كنيستنا الأعظم، سر حضور المسيح بيننا. ولهذا السبب يبقى دائماً الرجاء الفريد لحياة الإنسان الحقيقية. القداس الإلهي هو في الأساس سر الإفخارستيا نفسه. لقد قدم المسيح ذبيحته من أجل خلاص الشعب مرة واحدة وإلى الأبد، لذلك لا يمكن أن تتكرر هذه الذبيحة مرة أخرى (عبرانيين ٧: ٢٧؛ ٩: ١٢، ٢٨). ومع ذلك، خلال العشاء الأخير، قدم الرب نفسه، جسده ودمه، قبل الذبيحة الفريدة على الجلجثة (متى ٢٦: ٢٦-٢٨؛ مرقس ١٤: ٢٢-٢٤؛ لوقا ٢٢: ١٩-٢٠). وأمر تلاميذه أن يفعلوا الشيء نفسه حتى مجيئه الثاني وأوضح لهم كيف أن "أكل" جسده و"شرب" دمه ضروريان لخلاص الإنسان (يوحنا ٦: ٣١-٥٠؛ ١ كورنثوس ١١: ٢٣-٢٩).

من المهم لكل مسيحي أن يعرف العناصر الأساسية للقداس الإلهي وسر الإفخارستيا، كما يقول يوحنا الذهبي الفم: "لذلك من الضروري أن نفهم أعجوبة الأسرار، ما هي، ولماذا أعطيت، وما فائدة العمل".

من المعروف أن الحياة المسيحية مبنية على الأسرار. ليست الأسرار طقوساً سحرية تغيّر الإنسان وحياته ميكانيكياً، بل هي عطايا من الله. وهذه العطايا تجدد وجودها بموافقة الإنسان وتعاونه. أسرار الكنيسة هي وسائل مادية، بها تنتشر نعمة الله غير المخلوقة. إن المعمودية والميرون والإفخارستيا هي الأسرار الأساسية التي بها يستطيع الإنسان أن يندمج ويبقى في جسد المسيح. ترتقي الكنيسة إلى طريق حياة جديدة للإنسان. كان نيكولاس كاباسيلاس أحد اللاهوتيين الأساسيين الذين فسروا القداس الإلهي.

بحسب لاهوت كاباسيلاس كما في التقليد الكنسي، تبدو الإفخارستيا بمثابة السر الأعظم بين جميع الأسرار الأخرى. في الواقع، إنها السر الذي يحدد التدبير الإلهي بأكمله. ومن خلال هذا السر يستطيع المؤمنون أن يشتركوا ليس فقط في مواهب الروح القدس، بل في الرب المحسن نفسه. يتعلّق هذا الأمر بسر جسد ودم المسيح القائم من بين الأموات وتناولهما. في القداس الإلهي، تصبح الحقيقة الموضوعية لوجود الله قابلة للمقاربة عن طريق الرموز، كما يدعم كاباسيلاس. الإفخارستيا هي النقطة التي يبدأ فيها التجديد الليتورجي الأرثوذكسي، لأن "الإفخارستيا هي التعبير الوحيد عن كيان الكنيسة". لقد أعطى المسيح الليتورجيا للكنيسة من أجل نقل الخلاص الذي تم تحقيقه في الحاضر من خلال الملء الأخروي (الإسخاتولوجي) المختوم في السر.

لقد قيّم القديس نيكولاس كاباسيلاس الإفخارستيا بأنها الدواء الوحيد ضد خطيئة طبيعتنا. يبدو أن الإفخارستيا التي تنقل إلى المؤمن جسد المسيح ودمه كانت منتشرة على نطاق واسع منذ وقت مبكر، وقد تمت الإشارة إلى العناصر عادة باسم الجسد والدم من قبَل الكتّاب المسيحيين الأوائل. ويؤكد نيكولاس كاباسيلاس أننا نحتفل في القداس الإلهي المقدس بالشفاء والخلاص الذي قدمه المسيح. وبدون أدنى شك، فإن المناولة المقدسة تمنحنا الشفاء والمناعة ضد كل فيروسات الخطيئة الشريرة.

في النهاية، أوضح القديس نيكولاس متى يصل القداس الإلهي إلى نهايته ويكتمل سر الإفخارستيا المقدسة؛ لأن القرابين التي قدمناها لله قد تقدست، فقد قدست الكاهن، ونقلت قداستها إلى بقية الكنيسة بكاملها.

بشكل عام، يشير القداس الإلهي إلى ماهية الكنيسة ويعبّر عنها، لأن هذا هو جوهر الكنيسة المسيحية. أما مضمون الأخير فهو ليتورجي وإفخارستي. الإنسان الذي يحيا في التوبة ويتناول القربان المقدس، ينال القدرة على أن يصير إنساناً جامعاً ومتكاملاً، وعلى سبيل المثال، إنساناً يتجاوز التفكك والانقسام في الحقيقة والحياة الشاملة. الآن يمكن أن نفهم "لماذا لا ترمز الكنيسة إلى القداس الإلهي. إن الإفخارستيا هي التي تجعل الكنيسة بكل معنى الكلمة ما هي عليه حقاً". لهذا السبب من دون الإفخارستيا لا كنيسة. إن ما يجب أن يربكنا هو أن العبادة المقدسة لا تُفهم الآن على أنها وسيلة مميزة للتعبير عن الكنيسة وتحقيقها، بل يُنظر إلى الكنيسة على أنها مجرد طقوس عبادة.

في شرح نيكولاس كاباسيلاس اللاهوتي للقداس الإلهي، يشير إلى أن كل شيء يتم "في احتفال المواهب" كما يسمّي القداس الإلهي، "فالتقدمات والخبز والنبيذ مشار إليها في تجسد المخلص". لكل شيء معنى كامل على علاقة بوجه المسيح "الإله الإنسان". في الكلمة المتجسدة، هناك اكتمال خطة الله الثالوث للخليقة، كما إعادة بناء الإنسان والعالم أجمع. بحسب تعليم الكنيسة، "القرار الله العظيم"قبل تأسيس العالم، حدد هدف الخليقة ألا وهو التقدّس في المسيح وتألّه الإنسان والخليقة كلها، كما أيضاً ميراث الملك الإلهي.

Source : Eirini Artemi. The Fulfillment of the Church through the Sacrament of the Holy Eucharist according to Nicholas Cabasilas. Roda da Fortuna. *Revista Eletrônica sobre Antiguidade e Medievo* 2016, Volume 5, Número 2, pp. 165-179. ISSN: 2014-7430